الفصل الخامس

مع الإمام حسن البنا وإخوانه

- من هنا تكون البداية.
- مستقبل الثقافة في مصر.
- هل جاء الكمساري؟
- تواضع الدعاة إلى الله.
- الرسول زعيمنا.
- الإمام الشهيد يعاتب تلميذه.
- استشهاد الإمام حسن البنا.
- لو خرجنا من هذه الآلاف بواحد.
- هل نمت يا عمر؟
- لا نستعين بمن يعصي الله.
- الشيخ أحمد عبد الرحمٰن البنا يرثي ابنه
- عبد العزيز بلال.
- رسالة المجاهدين العشاق.
- حسان حتحوت الطبيب الإنسان.

obeikandl.com

(1)

من هنا تكون البداية[1]

لم يكن هذا النظام عسكرياً كما توحي التسمية ولا يمت إلى العسكرية بشيء.. لكنه كان نظاماً للتدريب الروحي والتوعية بالدعوة ومسارها. يبدأ مساء الخميس بعشاء متقشف ثم صلاة العشاء صلاة ممدودة خلف المرشد. وبعد خواتيم الصلاة يبدأ الدرس الأول الذي يمتد حتى حوالي الثانية صباحاً. ثم تكون فترة للتهجد وفترة للراحة، ثم درس ما قبل الفجر وصلاة الفجر وقراءة المأثورات.. وحلقة نقاش حتى يسطع الصباح قبل أن ننصرف إلى منازلنا. كانت الرياضة الروحية عميقة وممتعة.. عندما المرشد يقول: تذكروا أيها الإخوان أن الله ناظر إليكم ورقيب عليكم.. كنا نحس في ظلمة الليل بإحساس يكاد يكون ملموساً بالله ﷻ، إحساساً يلهينا عن ذواتنا وكل ما حولنا. وقد كان هذا العمق الروحي زاد المستقبل وعصمته من النزوات والشهوات والمغريات.. وإني لأشفق على الذين لم يتح لهم في حياتهم مثل هذا الإعداد.. على يد أستاذ لا كالأساتذة، فإنني حتى اليوم لم أعرف أحداً مثله. ولم يكن الأمر على ما عهد في الطرق الصوفية من علاقة الشيخ بمريديه وأخذهم العهد بتمام الطاعة له.. فقد كنا في حلقة النقاش نناقش وننتقد بكل حرية ونخالفه الرأي إن رأينا، والبيعة الوحيدة التي أعطيتها في الإخوان كانت عهد الله على الاستقامة والمحبة والثبات على الدعوة. وما زلت أعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الحركات الإسلامية لن تحرز النجاح إلا إن بدأت من هذه البداية.. تكوين اللبنات الصالحة.. أما البداية من النشاط السياسي أو العسكري أو المذهبي فهي بداية للرحلة من منتصف الطريق وشروع في البناء من غير حفر أساس.

---

(1) العقد الفريد، د. حسان حتحوت، ص: 21.

كانت كتيبة طلبة الجامعة مجموعة مختارة قوامها بين ثلاثين وأربعين هم عصارة قسم الطلبة، كما أنهم أمل المستقبل. وفي إحدى هذه الكتائب استأذن الأستاذ المرشد للذهاب إلى بيته القريب وعاد بعد ساعة لدرس ما قبل الفجر وبقية البرنامج. وفي طريقنا للبيت قلت لمن معي: لقد لحظت على وجه المرشد ما حسبته مسحة من حزن، خالفني الباقون. وفي الساعة العاشرة صباحاً اتصلوا بنا للحضور لتشييع جنازة حسام ابن الأستاذ المرشد. واتضح أن الرجل في الساعة التي استأذنها لبيته شهد وفاة ابنه (حسام) فغطاه وعاد إلى الدار ليكمل الدرس كالمعتاد.

كانت لوفاة حسام ملابسات في غاية الغرابة لم أعرفها إلا بعد سنين طوال. رأت والدته في المنام رجلاً يقول لها إن حساماً سيموت يوم كذا. انزعجت، خاصة أن حساماً أصيب بالباراتيفود. لكنه تماثل للشفاء وغادر المنزل يلعب مع الأطفال في صحة وعافية. لكن ذات مساء توعك حسام مرة أخرى وفي اليوم الذي حدده الرجل انتقل إلى جوار الله، لكن الأمر يزداد غرابة حين أذكر أن زماناً مضى ورأت السيدة في المنام مرة أخرى أن نفس الرجل جاءها ليخبرها أن طفلتها فلانة ستموت في موعد كذا! في هذه المرة استدان الأستاذ البنا بعض المال وأرسل من يشتري له مدفناً. ولم تمرض الطفلة لكن جاء اليوم الموعود فنامت وفارقت الحياة.

في هذه الكتائب عرف عني اهتمامي بحسن العلاقة بيننا وبين الأقباط.. اهتماماً جعل بعض الإخوة مثل مصطفى مؤمن وسعيد رمضان يسمونني الأب حسان. صارحني الأستاذ البنا بأنه يحمل نفس الأفكار وأنه سعيد لأن أحد تلامذته حريص عليها هذا الحرص. كذلك أذكر أننا برئنا من العصبيات المذهبية، وكان - رحمة الله عليه - عضواً في جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية التي تمثل الجميع بمن فيهم إخواننا الشيعة. ولو استمرت لكان من ورائها خير كثير ولكن تقلبات السياسة فيما بعد عصفت بها.

هكذا.. كما بيَّن أخونا حسان حتحوت تكون البداية.. وعلى الذين يتابعون الطريق.. أن يفهموا الطريق ويسلكوه.

(2)

مستقبل الثقافة في مصر[1]

أغرب الوقائع التي تدل على قوة ذاكرة الإمام حسن البنا رحمه الله ما كان بينه وبين كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) الذي كتبه طه حسين، ودعا فيه إلى (تغريب) التعليم والثقافة ووسائل العيش والحياة. ويحكي الإمام البنا قصته مع هذا الكتاب للأستاذ محمود عبد الحليم[2]، فيذكر أن المسؤولين في جمعية الشبان المسلمين أصروا على سماع رأي الإخوان في هذا الكتاب، وخصوصاً بعد أن أعلن طه حسين بوصفه - مستشار وزارة المعارف - إصراره على وضع آرائه موضع التنفيذ، وطبع المسؤولون في جمعية الشبان المسلمين الدعوات لحضور محاضرة يلقيها الأستاذ المرشد حسن البنا عن كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) بعد خمسة أيام، ولم يكن الأستاذ البنا قد قرأ الكتاب، ولم يجد وقتاً يخصصه لقراءة الكتاب إلا فترة ركوبه الترام في الصباح إلى مدرسته، وفترة رجوعه منها، وكان يضع علامات بالقلم الرصاص على فقرات معينة، ولم تمض الأيام الخمسة حتى استوعب الكتاب كله.

يقول الأستاذ حسن البنا: وفي الموعد المحدد ذهبت إلى دار الشبان المسلمين فوجدتها - على غير عادتها - غاصة، والحاضرون هم رجال العلم والأدب والتربية في مصر.. ووقفت على المنصة، واستفتحت بحمد الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبجانبي الدكتور يحيى الدرديري السكرتير العام للشبان المسلمين، ورأيت الكتاب كله منطبعاً في خاطري بعلاماتي التي كنت علمتها بالقلم الرصاص.

وبدأت أول ما بدأت فقلت: إنني لن أنقد هذا الكتاب بكلام من عندي،

---

(1) الإمام الشهيد حسن البنا، بين السهام السوداء وعطاء الرسائل، د. جابر قميحة.

(2) الذي أرّخ لحركة الإخوان المسلمين في كتاب أحداث صنعت التاريخ.

وإنما سأنقد بعضه ببعضه، وأخذت - ملتزماً بهذا الشرط - أذكر العبارة من الكتاب، وأعارضها بعبارة أخرى من نفس الكتاب، ولاحظ الدكتور الدرديري أنني في كل مرة أقول: يقول الدكتور طه حسين في الكتاب في صفحة كذا.. وأقرأ العبارة بنصها أيضاً من خاطري. ثم أقول: ويناقض الدكتور طه نفسه فيقول في صفحة كذا.. وأقرأ العبارة بنصها أيضاً من خاطري. فاستوقفني الدكتور الدرديري، وطلب إلي أن أمهله حتى يحضر نسخة من الكتاب ليراجع معي النصوص والصفحات، لأنه قرأ الكتاب، ولم يلاحظ فيه هذا التناقض وكأنه لم يقرأ العبارات التي يسمعها الآن.

وأُحضر له الكتاب، وظل يتابعني، فيجد العبارات لا تنقص حرفاً، ولا تزيد حرفاً، ويجد الصفحات كما حددتها تماماً، فكاد الدكتور الدرديري يجن، كما ساد الحاضرين جو من الدهشة والذهول، والكل يتجه - كلما قرأت من خاطري عبارتين متناقضتين - إلى الدكتور الدرديري كأنهم يسألونه: أحقاً هذه العبارات في الكتاب؟ فيقول الدرديري في كل مرة: تماماً بالنصوص والصفحات.

وظللت على هذه الوتيرة حتى أنهيت الكتاب كله، وأنهيت المحاضرة، فقام الجميع - وفي مقدمتهم الدكتور الدرديري - بين معانق ومقبل[1].

ويسقط أدعياء الزعامة من السياسيين والمفكرين، ويبقى حسن البنا في ذاكرة التاريخ إشراقة متوهجة لا تخبو ولا تذبل ولا تموت. وتبقى مسيرة حياته وفكره مِدَاداً ومَدَداً لحملة الأقلام الشريفة الأصيلة، من شرقيين أوفياء مؤمنين، وغربيين عدول منصفين، ومن هؤلاء الكاتب الأمريكي روبير جاكسون في كلمات تتدفق بشعور يمتزج فيه الإعجاب والعجب بالحزن واللوعة والأسى:

◄ هذا الشرق لا يستطيع أن يحتفظ طويلاً بالكنز الذي يقع في يده.

◄ إنه رجل لا ضريب له في هذا العصر.. لقد مرّ في تاريخ مصر مرور الطيف العابر الذي لا يتكرر.

---

(1) الإخوان المسلمون، أحداث صنعت التاريخ (1/ 240 - 241).

◄ كان لا بد أن يموت هذا الرجل - الذي صنع التاريخ وحوّل مجرى الطريق - شهيداً كما مات عمر وعلي والحسين.

◄ كان لا بد أن يموت باكراً، فقد كان غريباً عن طبيعة المجتمع..

يبدو كأنه الكلمة التي سبقت وقتها، أو لم يأت وقتها بعد[1].

كان عظيماً في سلوكه.. ثراً في عطائه..

مباركاً في دعوته.. وبمثله يكون الاقتداء.

(3)

هل جاء الكمساري[2]؟

يحدثنا الأستاذ المرشد العام محمد حامد أبو النصر فيقول: دعاني الإمام الشهيد لزيارة الإسكندرية بصحبته، ومن ميدان محطة مصر ركبنا حافلة حتى وصلنا ميدان المنشية فيها، وعندما أخذنا مقاعدنا أخرج فضيلته من حقيبته الصغيرة المصحف الشريف وأخذ يسر القراءة فيه طوال مدة الركوب وكانت هذه عادته في السفر، وحذوت حذوه، وفي ميدان الخديوي إسماعيل نزلنا بفندق صغير شعبي بالدور الثاني أمام البوستة العمومية، وما إن تعرفنا على حجرتنا حتى توضأنا وصلينا الظهر، ثم أبدى فضيلته رغبة في تناول طعام الغداء، فسألت فضيلته: أي أنواع الطعام ترغب فقال: اشتر لنا خبزاً وجبناً وعنباً، فلبيت رغبته وتناولنا طعامنا واسترحنا القيلولة واستيقظنا على أذان العصر فأديناها، ومن ميدان المنشية استقلينا ترمواي إلى القبارى حيث كان هناك موعد مسبق مع إمام المسجد ليلقي الإمام الشهيد درساً بعد صلاة المغرب، وعندما وصلنا إلى محطة النزول بالقبارى توجهنا إلى المسجد، وبعد صلاة المغرب قدم إمام المسجد الإمام الشهيد لإلقاء الدرس، وتم ذلك وانصرفنا.

---

(1) من كتاب روبي جاكسون، حسن البنا الرجل القرآني، ص: 5 - 15 - 19.

(2) حقيقة الخلاف بين الإخوان المسلمين وعبد الناصر، محمد حامد أبو النصر.

ومما استرعى انتباهي حادث وقع أثناء الطريق وهو أن المحصل لم يحضر إلينا ولم يطلب منا ثمن أجرة الركوب، وقد سألني الإمام الشهيد: هل جاء الكمساري؟ وهل أعطاك التذاكر؟ فقلت: لم يحضر بعد. فقال: إذن لا بد من ندائه وإعطائه الأجر، وطلب التذاكر منه لأن هذا ما يمليه الضمير، قلت لفضيلته: لعله يريد أن يعفينا من طلب الأجرة.. قال: ليس هذا من حقه بل هو حق الشركة، وليس لإنسان أن يتبرع من مال الغير، فناديت الكمساري وطلبت منه التذاكر فقال: أنا عارف يا سيدي.. وأنا شايف ضروري يعني..؟ خليها على الله ده شركة أجنبية، فسمع الإمام الشهيد فابتسم وقال: ولو.. لا بد من أن تأخذ ثمن التذكرتين وشكر الله لك، فأبرزت إليه الثمن وقدم إليّ التذكرتين.

وقد عشت في هذه المعاني الكريمة المتلاحقة والمبادىء التي أشرب بها قلب الرجل الذي أبى أن يستبيح مال الغير مهما كان الأمر.

هكذا كان سلوكه في معاملته للناس على اختلاف أديانهم وأجناسهم، وهي لفتة كريمة من مربٍّ عظيم ينهج قواعد الحق والعدل بين بني الإنسان.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

بهذا الإيمان العميق.. والفهم الدقيق.. والشفافية الرائعة عاش الأستاذ المرشد..

وعلى هذا الطريق سار إخوانه المخلصون من بعده..

وبمثله.. وبأمثالهم.. يكون الاقتداء..

(1) سورة المائدة، الآية: 8.

(4)

تواضع الدعاة إلى الله

يتحدث الأستاذ عمر التلمساني عن الإمام البنا فيقول:

تطوع أحد الإخوان في كتائب المجاهدين في فلسطين، وظن أبوه أن الأستاذ الإمام هو الذي أثَّر على ولده، وحمله على التطوع. فجاء إلى المركز العام ثائراً وأخذ يناقش الإمام الشهيد في حدة بالغة ويحمّله تبعة هذا التطوع. وقدر فضيلته مشاعر الأبوة الحانية فأخذ يتلطف بالرجل. ويعده بأنه سيعيد إليه ولده من فلسطين حتى اطمأن الرجل. وكان ضعيف البصر، وقد ترك حذاءه على باب الغرفة. فلما همّ بالانصراف إذ به يفاجأ بما ليس في حسبانه على الإطلاق.. فقد رأى فضيلة الأستاذ ينحني ويحمل حذاءه إليه، ويضعه تحت قدميه، وبهت الرجل! لأن هذا كان آخر ما يتوقعه من فضيلة المرشد بعد حديثه القاسي العنيف، وقال: كأنما ألقى عليّ المرشد الماء البارد. يعني أن كل ما كان في نفسه قد زال[1].

هكذا يتصرف الدعاة الربانيون..

وبمثل صنيعهم تكون القدوة.

(5)

الرسول زعيمنا

في مؤتمر الطلاب الذي انعقد بدار جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة عام 1938م خطب الإمام حسن البنا، فتحمس أحد الإخوان من الطلاب فهتف بحياة

(1) ذكريات.. لا مذكرات، عمر التلمساني، ص: 235.

حسن البنا - ورغم عدم استجابة الحاضرين لهذا الهتاف - إلا أن الأستاذ المرشد وقف صامتاً لا يتحرك برهة، فاتجهت إليه الأنظار في تطلع.. ثم بدأ حديثه في غضب فقال: أيها الإخوان، إن اليوم الذي يهتف في دعوتنا بأشخاص لن يكون ولن يأتي أبداً.

إن دعوتنا إسلامية ربانية قامت على عقيدة التوحيد، فلن تحيد عنها.

أيها الإخوان، لا تنسوا في غمرة الحماس الأصول التي آمنا بها، وهتفنا بها: (الرسول قدوتنا). ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

درس بليغ للدعاة الذين يحبون أن يهتف الناس بأسمائهم.. كل منهم يريد أن يستقطب الأضواء.. وتتسامع به الجماهير..

لهؤلاء نقدم درس الإمام.. ليفهموا غضبته عندما هتف البعض باسمه..!

وبأمثال هؤلاء القادة العظماء.. يكون الاقتداء.

(6)

الإمام الشهيد يعاتب تلميذه[1]

حدثني الأخ المجاهد (سيد الريس) أنه كان يتحرق شوقاً إلى الجهاد في فلسطين في حرب عام (1948م)، وتطوع مع كتيبة الإخوان المسلمين المتجهة إلى جبهة القتال.

ولما علم أبوه بالخبر، قابل المرشد العام الإمام حسن البنا، وطلب منه إعادة ولده إليه، فأجابه المرشد إلى طلبه، وأمر ولده بعدم السفر.

قال لي سيد:

(1) الإخوان المسلمون دعاة حق لا طلاب حكم، محمد سلامة جبر، ص: 41.

ولكنني كنت قد عزمت على السفر بنية الجهاد والرغبة في الاستشهاد، فلم أكن لأنقض عزمتي ولو خالفت مرشدي، وعصيت أمر والدي.

وسافرت سراً عن المرشد والوالد، واشتركت في كثير من العمليات العسكرية ضد اليهود والحمد لله.

ثم رأيت حسن البنا بعد استشهاده رحمه الله، رأيته في رؤيا صادقة، يقول لي في عتاب: ألم آمرك بعدم السفر؟.

قال لي سيد:

فاستحييت منه وأطرقت برأسي ولم أتكلم.

فانظر إلى حرص الإمام الشهيد رحمه الله على معاتبة من خالف الحق وتصرف بهواه، حتى وهو في عالم البرزخ عند ربه..

بمثل هؤلاء القادة الربانيين تكون القدوة.

(7)

استشهاد الإمام حسن البنا[1]

لقد كان استشهاد حسن البنا هو السبب المباشر لجذب سيد قطب إلى دعوة الإخوان المسلمين، ليكون المنظر الثاني للمدرسة الإخوانية بعد حسن البنا، مع أن سيد قطب لم يلتق به في حياته. فقد كان سيد في أمريكا يوم اغتيال الإمام البنا في 12 من فبراير سنة (1949). وقد لاحظ سيد مظاهر الفرح والابتهاج والشماتة عند الأمريكيين لاغتيال المرشد حسن البنا، كما اطلع على سرور الصحفيين والمراقبين كما بدا في تحليلاتهم وتعليقاتهم في الصحف الأوروبية والأمريكية حيث اعتبروا حسن البنا أخطر رجل في الشرق، كما اعتبروا جماعة الإخوان المسلمين أخطر جماعة وتنظيم في بلاد المسلمين، ومن يومها بدأ سيد يوجه

(1) الإمام الشهيد حسن البنا، بين السهام السوداء وعطاء الرسائل، د. جابر قميحة.

نظره، ويأخذ طريقه إلى مدرسة الإخوان المسلمين[1].

دعاة إلى الله.. يفرح الأعداء لمصرعهم.. هي شهادة لهم.. تدعو الأتقياء الأنقياء أن يتابعوهم.. وأن يقتدوا بهم.

(8)

لو خرجنا من هذه الآلاف بواحد!

يتحدث الأستاذ عمر التلمساني عن الإمام حسن البنا فيقول:

ذهبت معه مرة إلى مدينة طوخ، إحدى مدن مديرية القليوبية وكان الحفل حاشداً وبهيجاً، والأصوات عالية والهتافات مدوية، وكل شيء على ما يرام. وانتهى الحفل وعدنا إلى القاهرة في الليلة نفسها، وفي الطريق سألني فضيلته: ما رأيك في الحفل؟

قلت: إن الصخب الشديد، والأصوات العالية المدوية لا تطمئنني كثيراً كالطبل يدوي إذا طرقته، فإذا نظرت داخله رأيته أجوف، لا شيء فيه.

قال: اسمع نحن على قدم رسول الله ﷺ، كان يعرض نفسه على الناس في الأسواق. فلا يلقى إلا السخرية والإيذاء، فهلا نصبر على بطء الاستجابة..؟ إننا لو خرجنا من هذه الآلاف بواحد فقط، فذلك خير لنا من الدنيا وما فيها. هكذا كان يزرع الأمل في قلوبنا، وهكذا كان يصبّرنا على احتمال كل ما نلقاه في سبيل الدعوة.

لا يعلمنا ذلك في مكتبه أو محاضراته، أو نظرياً أو فلسفياً، ولكن يعلمنا الثبات والتثبت والصمود عملياً، في تنقلاتنا معه في القرى والدساكر والكفور. أقدامنا تغوص في الرمل والزلط والأرض الرطبة، ومناديلنا تكاد تعصر من العرق الذي نجففه من طول ما نمشي. كنا نبيت مع الإخوان على الحصير في المساجد

(1) سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، الدكتور عبد الفتاح الخالدي، ص: 318.

أو في الأجران - إن تعثر المبيت في المسجد أو المضيفة - الأكل أقله وأخشنه، كان الوفاء بالبيعة يلزمنا بالنزول عند رغبة من بايعناه في غير معصية[1].

وبفضل هذا الإخلاص والتجرد لله.. انتشرت هذه الدعوة المباركة ليس في مصر وحدها.. بل بلغت ما بلغ الليل والنهار..

في هذا الطريق العظيم.. يجد الإخوان أنفسهم..

وبمثل هذه القيادات المخلصة لله.. يكون الاقتداء.

(9)

هل نمت يا عمر؟

يتحدث الأستاذ عمر التلمساني عن الإمام حسن البنا فيقول:

وإليك مثلاً من أمثلة الخلق الرقيق والتربية العملية الواقعية: ذهبت معه يوماً إلى المنزلة، وبعد الحفل صعدنا إلى الطابق الثاني في منزل لنأخذ قسطاً من الراحة، إن كان في تلك الرحلات راحة مادية، وإن كانت مترعة بالراحة القلبية. ودخلت معه إلى حجرة بها سريران وعلى كل سرير ناموسية، لأن المنطقة كانت زاخرة بجحافل الناموس، التي لا ترتوي إلا من امتصاص دماء البشر، وإن كنت قد قرأت في بعض ما قرأت أن البعوضة تعيش ما دامت جائعة فإذا شبعت وامتلأت ماتت.

ودخل سريره وأرخى ناموسيته، وفعلت مثلما فعل على السرير الآخر.

وكان التعب والإجهاد قد بلغ مني مداه، فاعتراني قلق وبعد خمس دقائق تقريباً سألني فضيلته:

هل نمت يا عمر؟

---

(1) ذكريات.. لا مذكرات، عمر التلمساني، ص: 47.

قلت: ليس بعد.

ثم كرر السؤال فترة بعد فترة، حتى ضقت بالأمر، وقلت في نفسي: ألا يكفيني ما أنا فيه من إجهاد وقلق حتى تضاعف علي المتاعب؟ ألا تدعني أنام؟

كان هذا حديثاً صامتاً يدور بيني وبين نفسي فصممت على ألا أردّ على أسئلته موهماً إياه أنني نمت. فلما اطمأن إلى نومي نزل من سريره في هدوء كامل، وعند الباب أخذ (القبقاب) بيده وسار حافياً حتى وصل إلى دورة المياه، حيث توضأ، وأخذ سجادة صغيرة، وذهب إلى آخر الصالة بعيداً عن الغرفة، التي ننام فيها.. وأخذ يصلي ما شاء الله له أن يصلي، ونمت أنا ما شاء الله لي أن أنام.

وصحوت وتبينت حقيقة الدرس العملي الصامت، الذي مررت به ليلتي تلك:

مرشد آتاه الله جلداً في طاعته.. فهو يخطب ويتحدث فإذا انصرف الناس ليستريحوا خلا إلى ربه مصلياً ومتهجداً، وهو قادر على ذلك بما وهبه الله من احتمال على مواصلة الطاعات ليل نهار[1].

بمثل هذه الدعوة المباركة المعطاء..

ورجالها الربانيين.. يكون الاقتداء..!!.

(10)

لا نستعين بمن يعصي الله

عندما قام الإخوان المسلمون في مصر بعمل مظاهرات في البلاد انتصاراً لقضية فلسطين عام 1936، استدعى رئيس النيابة في القاهرة الإمام حسن البنا للتحقيق معه.

وقبل أن يدخل الإمام مكتب النائب العام، تقدم أحد المحامين يطلب من الأستاذ المرشد أن يدخل معه أثناء التحقيق.

---

(1) ذكريات.. لا مذكرات - عمر التلمساني، ص: 48.

ولكن الأستاذ لاحظ أن المحامي يمسك (بسيجارة) مع العلم بأن الوقت في شهر رمضان المعظم.

فقال له الأستاذ المرشد: نحن لا نستعين بمن يعصي الله في طاعة الله تعالى.

درس عظيم.. ينبغي أن يستوعبه الدعاة..

وأن يقتدوا بأمثال هؤلاء القادة..!.

(11)

الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا يرثي ابنه

عن أنس بن مالك رضي الله عنه في قصة موت إبراهيم ابن النبي ﷺ، قال: فجاء رسول الله ﷺ فدعا بالصبي فضمه إلى صدره، قال أنس: فدمعت عينا رسول الله وقال: «**تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا عز وجل، والله إنا بك يا إبراهيم لمحزونون**».

تتمثل لي يا ولدي الحبيب في صورتين.. صورة وأنت رضيع لم تتجاوز الستة شهور، ولقد استغرقت مع والدتك في نوم عميق، وأعود بعد منتصف الليل، من مكتبي إلى المنزل فأرى ما يروع القلب ويهز جوانب الفؤاد.. أفعى مروعة قد التفت على نفسها وجثمت بجوارك، ورأسها ممدود إلى جانب رأسك وليس بينها وبينك مسافة يمكن أن تقاس.

وينخلع قلبي هلعاً فأضرع إلى ربي وأستغيثه فيثبت قلبي، ويذهب مني الفزع، وينطلق لساني بعبارات واردة في الرقية من مس الحية.. وما أفرغ من التلاوة حتى تنكمش الحية على نفسها وتعود إلى جحرها، وينجيك الله يا ولدي من شرها لإرادة سابقة في علمه، وأمر هو فيك بالغه.

وأتمثلك يا ولدي وأنت صريع وقد حملت في الليل مسفوكاً دمك ذاهبة نفسك، ممزقة أشلاؤك، هابت أذاك حيات الغاب، ونهشت جسدك الطاهر حيات البشر! فما هي إلا قدرة من الله وحده تثبت في هذا الموقف، وتعين على

هذا الهول وتساعد في هذا المصاب.. فأكشف عن وجهك الحبيب فأرى فيه إشراقة النور وهناءة الشهادة، فتدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ﷻ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

وأقوم يا ولدي على غسلك وكفنك وأصلي وحدي من البشر عليك، وأمشي خلفك، أحمل نصفي، ونصفي محمول، أفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد.

أما أنت يا ولدي فقد نلت الشهادة التي كنت تسأل الله تعالى في سجودك أن ينيلك إياها فهنيئاً لك بها، فقد روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وإن له ما على الأرض من شيء إلا الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»**.

اللّهم أكرم نزله، وأعل مرتبته، واجعل الجنة مثواه ومستقره، اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده، واغفر لنا وله.

وأما أنتم يا من عرفتم ولدي واتبعتم طريقه.. إن خير ما تحيون به ذكراه أن تنسجوا على منواله، وتترسموا خطاه، فتتمسكوا بآداب الإسلام وتعتصموا بحبل الأخوة، وتخلصوا النية والعمل لله.

(12)

عبد العزيز بلال[1]

الشيخ عبد العزيز بلال، عالم جليل من علماء الإسلام العاملين، كان مدرساً بالمعهد الديني بالإسكندرية، يعيش عيشة الصالحين في حياته وسلوكه، متواضعاً يعايش الفقراء قبل الأغنياء، أعطى شقة في منزله لشعبة الإخوان برأس التين وتبرع بمائة جنيه لبناء دار للشعبة في ذلك المكان. دعاه الملك لتناول طعام

(1) في قافلة الإخوان المسلمين، عباس السيسي، ج 2.

الإفطار في شهر رمضان كما يفعل في كل عام فرفض وقال: لا آكل من دماء المسلمين.. وحين استشهد الإمام حسن البنا استأذن من فضيلة الشيخ عبد الحفيظ الشناوي إمام مسجد سيدي تمراز ليلقي خطبة الجمعة فقام على المنبر ينعى الإمام الشهيد حسن البنا شهيد الإسلام ومجدد الدعوة الإسلامية في القرن العشرين، وختم كلمته بصوت عال وهو يقول: (إن دم حسن البنا في عنق الملك فاروق).. ويوم نُعي الشيخ بلال إلى الناس كان يوماً شاتياً، ولكن جمهور المسلمين أصروا أن يحملوا جثمانه حتى مقبرته في مظاهرة إسلامية حزينة.

بمثل هؤلاء العلماء الصادقين تكون القدوة!.

(13)

رسائل المجاهدين العشاق[1]

يحدثنا الدكتور حسان حتحوت في كتابه القيم «العقد الفريد» فيقول: عندما أعلنت عزمي على التطوع إلى فلسطين عارضني أهلي وأصدقائي وأساتذتي بالكلية ما عدا والدتي التي قالت: «أهو ده الواجب اللي مقدرش أمنعك عنه». وسرعان - بل بعد أيام قلائل - ما جدت ظروف أخرى. فإن الهلال الأحمر المصري كان قد أقام في مدينة الرملة مستشفى بقيادة الدكتور أ.ن. باشا من لواءات الجيش المتقاعدين. لكن المستشفى تعثر ودخل في مشكلات لا حصر لها وساءت السمعة وكثرت الشكاوى، فطلب الهلال الأحمر من الأستاذ المرشد ثلاثة أطباء ليتسلموا المستشفى. سافرت أنا وصديقي المرحوم الدكتور أحمد سعيد خطاب وهبطنا في مطار اللد، وبعد أيام لحق بنا الدكتور أحمد الملط رحمه الله وغادر الباشا إلى مصر بناءً على رسالة حملتها إليه، وتسلمنا المستشفى والهيئة التي كنت بها، ولعلّي أورد هنا أبياتاً من قصيدة ألفها الوالد في أثناء غيابي:

(1) العقد الفريد، د. حسان حتحوت.

اهبط على أرض السلام جعلت يا ولدي فداك
ضمد جراحات العروبة سدد المولى خطاك
وامسح دموع الثاكلات عساك تسعدها عساك
واذكر فلسطين الجريحة وانس أمك أو أباك
إني وهبت للجهاد وأين لي سيف سواك
صهيون لا أدركت ما ترجو وفض الله فاك
اليوم بؤت بحسرة وجنيت ما غرست يداك
فاقطع يمينك حسرة فهي التي صفعت قفاك

ولا أذكر باقيها، ولكن كان هذا هو الشعور وهو الأمل فلم نكن ندري ما تخبئه الأيام. لم نكن نعلم أن يد صهيون ستصفع قفانا نحن، وأن فلسطين سيغدر بها الصديق قبل العدو ويتاجر بها المتاجرون ويساوم عليها المساومون، وما أبعد البَوْن بين قصيدة الوالد وبين قصيدة أخرى كتبتها أنا بعد سنوات وجاء فيها[1]:

هذي فلسطين قد طال الزمان بها ... ولم تزل تشتكي قيداً وقضبانا
غدر (الغريب) بها لون وكم شهدت ... غدر (القريب) أفانين وألوانا
قضية كسراب الماء مزمنة ... كم استغل محامونا قضايانا
فميص عثمان كل يدعيه فيا ... ويح القميص المعنّى.. ويح عثمانا
ليلى: تعددت الأقياس نائحة ... وكل قيس على ليلاه غنّانا

ولقد رأيت - بعد تردد - من المناسب أيضاً أن أثبت هنا الخطاب الذي أرسلته قبل الرحيل لمخطوبتي (زوجتي) سلوناس وكذلك ردها عليه.

ولئن كان هذا من الخصوصيات بطبيعة الحال، فقد رأيت من المفيد لشبابنا في هذه الأيام أن يعلموا كيف كان أسلوب المراسلة بين خاطب شاب وبين مخطوبته.. ويقارنوه بأسلوب اليوم إن كان ثمة أسلوب.

«سلوناس.

(1) ديوان جراح وأفراح، د. حسان حتحوت.

سلام لك ورحمة الله وبركاته.

أسعد الناس من إذا رحل مطمئناً لا ينوشه القلق على شريكته.. واثقاً من أنها نبع من القوة يغذيه في غربته فيشحذ من عزمته.

وأشقى الناس من اغترب فلم يزل طيفها أمامه شاكية أو باكية.. فهي ثغرة في نفسه وجمرة في كبده وشتات في فكره ووهن في كيانه. أعشق القوة وأعشقك..

فتلبسي بمعاني القوة في باطنك وظاهرك تكفيني عذاب التناقض بين ما أحب ومن أحب.

يسلم الكل بسلامة مكوناته. بصحة اللبنة يصح البناء.. وبصحة الوحدات الإنسانية تصح الإنسانية.. وأنا وأنت وحدة في الإنسانية ولبنة في البناء ما يشفع لها أن نصفها قوي ونصفها ضعيف، كلا بل نحن نصفان قويان في لبنة. الحياة الحركة، والسكون الفناء! أم تودين أن تكون حياتنا تافهة فاترة خامدة ليس فيها إلا الموت؟

وبعد أيتها الحبيبة فإنني أود أن أكتب إليك.

وجعلت لك جلستي بعد فكرتي وقد مضى من الليل هزيع، وكاد هزيع. ويشاء العمل في المستشفى أن يقاطعنا فتمر ساعة كاملة بين السطر الأول والسطر الثاني من هذا الكلام، وتمر ساعة في خلاله فهي الآن الثانية بعد منتصف الليل. وأعود فأجلس إليك.

ولو أنني سافرت في المرة الأولى لكان وداعاً أبتر. أما وقد كتبت إليك فيريحني أن أذهب بعد أن سكبت معاني على هذه السطور وأودعتها عندك. فعسى أن لا يكون سفري بعد ذلك أمراً على غرة.

سأسافر إن شاء الله سفراً مشرفاً لا يخجل صاحبه يوم القيامة.

وستبقين أنت بقاء مشرفاً، لا تخجل صاحبته يوم القيامة.

وسأغيب مدة طويلة.

طويلة لا بعدّتها من الليالي والأيام، ولكن لأنني لن ألقاك في خلالها.

وقد علمت أنني ما فرغت من وداعك مرة إلا وأنا شارع في انتظار اللقاء التالي وفي استعجال هذا اللقاء.

وتعلمين من أنت لديّ ومن أنت عندي.

فلتعلمي أنني سعيد بالسفر يا أحب الناس إليّ وأعزهم عليّ.

أنا سعيد بهذه الفترة من الفراق، تماماً مثلما كنت سعيداً إذ تسيرين بجواري، ونحن نتّقي اللمسة وغير اللمسة على ظمإ إلى اللمسة وغير اللمسة، والنفوس العميقة الصافية المؤمنة أقوى من سائر النفوس على ما تعتري به الحوادث والظروف.

والعشاق المؤمنون يدينون بالمعاني ويدينون لها الأحاسيس. ولقد يستعذبون الفراق ويطربون للبعاد ما دام ذلك لوجه الله أو لوجه معنى كريم، والحب الذي بيننا قبس من روح الله الأزلي. سيان لديه البعد والقرب والمغيب والمحضر، ولن تفصلنا مسافة مكانية ولا مسافة زمانية، بل نحن على الوصال القائم والشهود الدائم. وذلك من فضل الله.

وتعلمين أننا نظلم نفسينا لو وكلناهما بما نفرضه على سائر الناس. وما أطالب القنديل بضوء شمعة. ومن زاد فضل الله عليه زاد حق الله عليه.

وإنما بنيت بك على صحبة الدنيا والآخرة. ففيم تخافين ومم؟ ولو أنه الموت لكان باباً نلجه إلى ملتقى يضمنا لا إلى منشعب نفترق عليه.

وما دمنا صحبة من قبل ومن بعد فسيان عندك وعندي أن أمر قبلك أو تمرين قبلي.

أختاه.. الخلود أرسخ من أن يهزه أمر الدنيا.

والدنيا في ذاتها أرسخ من أن يهزها أمر وقتياتها ومؤقتاتها وعوارضها وأعراضها..

ولذلك فإن سفري إلى فلسطين لا يستطيع أن يحول عين الأمل والرجاء عن نجاحك في السنة الثالثة، ثم تخرجك.. ثم المعيشة معك في بيتنا الذي يبرح بنا

الشوق إليه. أتفهمين يا سلوناس؟ هو بيتنا نحن الاثنين.. أنت وأنا. لي عرض الجهاد إذاً. أما جوهره فموكول بك معقود عليك. وأستحلفك بالله ألا تقصري فيه لا من أجلك ولكن من أجلنا. وأنت تعلمين. أنا ماض إذاً لأجاهد، وأنت باقية لتجاهدي. فليبذل كلٌ وسعه، أما أنا فسعيد على البعد سعادة المطمئن الراضي لا سعادة الذي يدّرع بالقسوة ويتكلف الخشونة. فكوني كذلك أسعد بك في الصحو والحلم.

قد كفتني نفسي أمر نفسي.. فهل تكفينني أمر نفسك؟ حقاً؟ شكراً!

وما يغيب عني كما لم يغب عنك أن هذه الفترة التي نفترق فيها قد تكون مليئة بالأحداث والأعاجيب.. قد يولد ناس ويذهب ناس. وقد يشفي ناس ويمرض ناس. وقد تلين الحياة أو تجف. ولكن كوني دائماً أجف من الحياة على حاليها.. وافعلي دائماً ما كنت أفعله أنا لو كنت موجوداً وأنت أعرف الخلق بنفسي.. واستلهميني أمرك في السر والعلن. وغيري أي شيء إلا أنك لي وأنني لك. ذلك كلام إذا جاوبتني به - وأنت كذلك - فليس في السفر عقبات وليس فيه هموم وليس فيه الشيطان.

وقفي مواقف لا وحدك ولكن معي، أما هناك فسأكون معك.. ولن أتركك طرف عين ولا أقل من ذلك وأنت العون، وأنت المدد إن شاء الله. كل أمر يهون ما دمت تهوّنينه. فكوني أكبر من كل شيء يصغر أمامك كل شيء. واجعلي محور حياتك الصلة بالله، ادخلي رحابه وعيشي في كنفه، واجعلي ما بينه وبينك وداً عامراً، وما أردت فخُذي منه، واسأليه لنا الخير كل الخير. وما دمت توصيني الخير بصحتي، فلأقم لأنام كسرة من الليل. ولئن تركتك مسطراً فما أتركك مفكراً.. أيتها الحبيبة.

هي رسالة لك أيتها الحبيبة كان من الجحود ألا تناليها، وهو شعور وفيّ أيتها الحبيبة يكون من الجحود ألا أومىء إليه، وما أنا ببالغ على الورقة ما أشتهي، فحديث نفسي ونفسك لا ينتهي، ولكنها قصاصة ورمز وشعيرة.. لك بعدها ما تعلمين وأكثر مما تعلمين.

بل هو وداع إلى حين، من النفس المطمئنة.. حتى ترجع إليك راضية مرضية. فاحفظي عني وصوني لي يا أيتها الأخت الوفية والزوجة المخلصة.

وإذا رحلت فزوديني من بطولتك وصلابتك ما تزوديني من حنوك وعطفك.

وفيضي عليّ من إيمانك العميق وروحك الصافية ونورك الغامر.

ونحن من قبل ومن بعد على كف الله وبعينه. ولك الحب وعليك السلام يا سلوناس.

حسان

أبريل 1948

«حسان..

بسم الله، أنت ذاهب إلى فلسطين وفي سبيل الله والإنسانية ما أنت مقدم عليه، ومن أجل الأوطان العربية المقدسة قد طاب لك الجهاد، بل أنت تدرك أن كل جهاد في أي بلد عربي إنما هو جهاد في سبيل مصر، وقد أصبحنا نؤمن أن السبيل الوحيد إلى التخلص من الاستعمار على اختلاف صوره، وهو اتحاد العرب جميعاً في أنحاء الأرض اتحاداً معنوياً ومادياً يكفل لهم عزتهم ويجدد لهم مجدهم وسيادتهم.

وأنت تدرك أيضاً أن هذا العمل الباسل الجليل الذي تقدم عليه ليس إلا أول خطوة في سبيل تحقيق آمالنا القومية. وقد شاء الله أن تبدأ جهادك في فلسطين، فلعل مشيئته العالية ترعاك حتى تعود إلى مصر فنواصل الجهاد سوياً في مختلف الميادين.

وكم كنت أتمنى أن أشاركك هذا الشرف وأن أصحبك في رحلتك هذه إلى فلسطين ولكن يبدو أن الأقدار تريد أن تميزك وأن تجعل لك عليّ درجة حتى في الجهاد.

لا يعلم الغيب إلا الله، فلا تدري أنت ولا أدري أنا ماذا سيحل بنا في هذه الشهور الستة التي ستفرق بيننا، ولكن لك أن تعلم أن حياتك هي حياتي، فاحرص عليها ما استطعت. وإن روحك متصلة بروحي إذا نالها خير فأنا معك

فرحة طروبة، وإن آلمها أمر فأنا معك متألمة مواسية، وأن هذه الصلة سرمدية باقية ليس لها انقطاع على القرب أو البعد، ولا لها امتناع حتى لو امتنعت عن أحدنا أو كلينا تلك الحياة الدنيا.

ليس لديّ كثير من القول أوجهه إليك فإن في قوة إيمانك ذخيرة أطمئن إليها، ولكن لدي كثيراً من الرجاء أوجهه إلى الله العلي القدير أن يحصنك بعنايته وأن يكتب لك السلامة في كل حركاتك وسكناتك وأن يبارك في جهادك، وأن نلتقي على خير إنه سميع مجيب.

سلوناس».

بمثل هؤلاء المجاهدين.. في المعركة وفي كل الميادين..

وبمثل هذا الحب الحلال.. والسحر الحلال.. يكون الاقتداء.

(14)

حسان حتحوت الطبيب الإنسان

«من ذكرياتي الشخصية العزيزة في فلسطين، أحداث حصار الرملة وما كان فيه.. وعدد من جرحى اليهود المأسورين أحضروهم للمستشفى، وجاء ناس ليقتلوهم فتصديت لهم وقلت: على جثتي، وألقيت خطبة عن تعاليم الإسلام في شأن الأسرى من الأعداء.. وعاملتهم أحسن معاملة نفسياً وطبياً وإنسانياً.. ثم ذهبوا في تبادل للأسرى بمعرفة الصليب الأحمر، لكن بقي منهم واحد، كانت إصابته خطيرة اسمه نفتالي زاينفلد..

نشأت بيننا ألفة، وكان قلقاً على طفله الذي يبلغ سنة من العمر، حتى جاء الوقت وتسلمه الصليب الأحمر وانصرف وهو يقول لي مودعاً: (أنا مدين لك بحياتي يا دكتور).

بعد ذهابي إلى رام الله في مستشفانا، أرسلت عن طريق الصليب الأحمر

رسالة أطلب فيها الإذن بالعودة إلى الرملة بين مرضاي (كما يغرق الربان مع سفينته).. وكان الحافز الأكبر هو صديقي الدكتور خطاب الذي بقي في الأسر بالرملة هو والدكتور راسم الخيري (زميل فلسطيني عزيز).. ولكن اليهود أجابوا بالرفض. فطلبت من الصليب الأحمر أن يرتب لي لقاء مباشراً مع المندوب اليهودي فكان اجتماع بدير اللطرون. وما إن رآني المندوب اليهودي (دكتور هوخمان) حتى نادى: «الدكتور حسان.. ذو العينين الزرقاوين والشارب البلاتيني».. قال إنه يعرفني قبل أن يراني مما رواه عني اليهود الذين كانوا تحت رعايتي، وأن صحفهم نشرت عني، وأن قواتهم التي دخلت الرملة كانت تحمل أوامر بالمحافظة على سلامتي شخصياً، وسلامة المستشفى الذي أعمل به. وطلبت منه - وقد رفض طلبي بالعودة إلى الرملة - أن يعيد لي زميلي الدكتور خطاب. قال إن في أسر المصريين ثلاثة أطباء يهود، وإنه على استعداد لمبادلة خطاب بواحد منهم. كان الطلب معجزاً لي، فلا أنا ولا خطاب نعمل في القوات المصرية، ولكن جئنا متطوعين من قبل دخول البلاد العربية الحرب. قلت له إنني في تعاملي مع أسراهم لم أكن أمثل دولة ولا قانوناً.. فلم يكن هناك التزام يلزمني أن أرعاهم هذه الرعاية لدرجة إعطائهم أشياءهم الشخصية من ساعات ونقود عند رحيلهم فضلاً عن تعريض نفسي للخطر دفاعاً عن حياتهم. وإن من المفيد أن يبقى هذا الاعتبار الإنساني حياً على جانبي خط القتال، وإنني طلبت الأسر فلم يقبل طلبي، وجاء دوري الآن في الاحتياج إلى الاستعانة بالدكتور خطاب، في تلبية الحاجة الملحة لعشرات الألوف من اللاجئين الذين يعيشون تحت الأشجار، والذين يموت منهم عشرات من الأطفال كل يوم نتيجة البرد والمرض.

ولم يحسم الأمر في اللقاء الأول، ولكن في اللقاء الثالث، وعلى مائدة الغداء قام الدكتور هوخمان خطيباً، فقال: (أيها السادة، إننا نعيد الدكتور خطاب كهدية للدكتور حسان، لنريه أننا معترفون بالجميل). وصفق الجميع، فأضاف هوخمان: (ونعيد له كذلك، غرفة العمليات التي كان يعمل بها بمستشفى

الرملة). وكتب رسالة بالعبرية حملتها سيارة إلى حاكم الرملة. وبعد حوالي ساعتين، وصلت سيارة تحمل الدكتور خطاب ولوري يحمل غرف العمليات[1].

بمثل أخلاقيات حسان حتحوت يكون الاقتداء!.

(1) العقد الفريد (1942 – 1952)، عشر سنوات مع الأستاذ حسن البنا، د. حسان حتحوت، ص: 66.

obeikandl.com